

المحاضرة الرابعة عشر

خامساً: ظهور فلسفة التاريخ

لا يوجد اجماع بين المؤرخون حول بداية "تفسير التاريخ" او "فلسفة التاريخ"، حتى مع وجود شبه اجماع على كون هيرودوت أبا التاريخ، يعترض المؤرخ محسن محمد حسين على ذلك بالقول: "ان هيرودوت ليس أبا للتاريخ لان ما دونه يراعه ليس اكثر من انطباعات سائح لما شاهده في ضوء عقلية عصره" اما ما فعله توكيديديس (٤٦٦-٣٩٥ ق.م)، فكان شيء كبير اذ كان اول من حاول "ان يكتب التاريخ بحيادية وموضوعية، حتى اثارت نزاهته حفيظة حكام زمانه المهزومين في معركة (بيلو بونيز) الشهيرة بين اسبارطه واثينا فتعرض للنفي لأنه تساءل اين النصر الذي تعلنه قياداتنا؟ والاهم من ذلك قوله: "أرى وكأن التاريخ يعيد نفسه" والتي يرى محسن بانها "صارت ايقونة المعنيين بعلم التاريخ تلك الكلمة السحرية التي باتت السؤال الذي يثيره التاريخ ويناقشه المؤرخون في مختلف العصور وربما كانت كلمات توكيديديس بداية ظهور ما صرنا نسميه تفسير التاريخ او فلسفة التاريخ" (حسين، ٢٠١٧، الصفحات ٦١-٦٢).

وبهذا يرى بان عبقرية هذا الرجل اوصلته واوصلت الفكر الى اكتشاف المنهجية في التاريخ، ومن ثم تفسير احداثه، ولكن الامر لم يكون بهذه السهولة فالكتابة التاريخية مرت بمراحل من المد والجزر، ولا تزال مستمرة في قبول ورفض هذه النظرية او تلك بل هناك من يرفض اخضاع التاريخ للتفسير فصار هناك تفسير اخر خاص برفض التفسير، والواقع ان الحاجة الى اعمال تفسيرية شاملة نشأت حينما صار الانسان يجد ان الوقوف عند سرد الاحداث وتسجيلها لم يعد كافياً لمعرفة ما حصل بل لابد من رؤية معمقة لادراك طبيعة الأمور، فنشأة الحاجة الى الفلسفة او تفسير الوقائع وربطها لاكتشاف معنى الفعل الإنساني. فهناك من يجزم بان كل ما حدث ويحدث في التاريخ يمكن رصده او توقعه، اذا ما تمت مراقبة ومراعات الظروف التي سبقته واحاطت به. وهو ما يؤكد احقيته بان يعتبر علماً، نعم انه ليس علم تجربة واختبار الواقع. وانما هو علم (نقد وتحقيق لوثائقه) التي دونت فيها احداثه الماضية وتفسيرها، وكذلك فهو علم من حيث دراسته منهجياً، على ضوء قواعد اكتسبها بمرور الزمن، دفع الجدل المستمر حول علمية التاريخ بالعاملين فيه الى تصنيفه ضمن المعرفة الفلسفية بعد ان مرة بالمعرفة الدينية اللاهوت والأدبية والعلمية، لكنه لم يستقر فيها رغم عدم الاتفاق على ذلك والواقع الذي صنّف فيه التاريخ قد بدأ منذ عهود حتى وان لم يستعمل لفظ الفلسفة مقرون بالتاريخ،

قبل فولتير الذي استخدم ذلك بقصد عرض الاحداث التاريخية عرضاً تحليلياً نقدياً او علمياً او بتعبير ادق كان هذا المفكر كان هذا المفكر يقصد بفلسفة التاريخ نوعاً من التفكير ليقيد فيه المؤرخ بمقاييس منطقية، بدلا من الاعتماد على ما جاء في الكتب او الاعتماد على عنصر الصدفة (حسين، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، ٢٠١٢، الصفحات ١١-١٥).

ظهر مصطلح فلسفة التاريخ واستعمل لأول مرة في عصر التنوير في فرنسا خلال القرن الثامن عشر وأول من استخدمه عام ١٧٥٦ هو فرونسا أرويه فولتير، في كتاب عنوانه (فلسفة التاريخ) وكرر الفكرة في كتاب اخر (مدخل في سلوك وطبائع الأمم وروحها) وقصد بذلك حسب عبد الجبار ناجي "التفكير بالتاريخ تفكيراً عقلياً"، فلسفة التاريخ عند فولتير تهدف الى تنقيح الدراسات التاريخية وتعديلها فالتاريخ النقدي هو تحرير الفكر الإنساني من ما جاء في الكتب القديمة (ناجي، ٢٠٠٨، صفحة ٥٨)، ويضيف الملاح بانه أراد ان ينبه المؤرخين على ضرورة استخدام منطق الفلسفة العقلاني في دراسة التاريخ من اجل نقد الروايات والاحبار التاريخية وتنقيتها مما دخل فيها من خرافات واساطير وكل ما لا يتفق مع حكم العقل والواقع، (الملاح، ٢٠١٢، صفحة ٣) ووفقاً للملاح قد تكون فلسفة التاريخ وجدت لحاجة المؤرخين ليس الفلاسفة، لكن ذلك لا يعني انها قد بدأت معه، فالتفلسف في التاريخ قد ظهر قبل ورود المصطلح بمدة طويلة، ولم يقتصر على ما قدمه الفلاسفة من رؤى ونظريات حول مسيرة الكون والتاريخ البشري منذ القدم، فقد كان عبد الرحمن بن خلدون فيلسوف التاريخ اول من أشار الى ان التاريخ "نظر وتحقيق وتعليل للكائنات وعلم بكيفيات الوقائع والأسباب" وهذه العبارة تعبر بوضوح عن المعنى الحقيقي للتاريخ، وتشير الى ان هناك قوانين وأسباب تتحكم في حركة التاريخ (طحطح، ٢٠١٨، صفحة ٨)، ذلك التعريف الذي عده مرتضى النقيب بانه غاية في التطور بالنسبة لمفهوم التاريخ ويمثل تعبير حي عن ثنائية التاريخ كموضوع يدور حول احداث الماضي واخباره كما نقول كيمياء او فيزياء، والتاريخ وهو ما يمثل العلمية التي يضيفها المؤرخون على أعمالهم حينما يمارسون "النظر والتحقيق والتعليل" على تلك الاحداث والوقائع أي ما يقابل التفلسف في الجزئيات مع المحافظة على الموضوعية والزمانية والالتزام بمنهج البحث التاريخي الصارم (النقيب، ١٩٩٩، الصفحات ٤-٥). أي على حد تعبير غوستاف لوبون "تتألف فلسفة كل علم من مبادئه العامة، وإذا تحول هذا العلم تحولت فلسفته ايضاً" (لوبون، ٢٠١٨، صفحة ١٣).

يعرف النقيب فلسفة التاريخ بانها تعني "النظر الى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية من اجل معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم بها" وربما ينتهي هنا التعريف بالنسبة لعمل المؤرخين او فلاسفة التاريخ عند النظر للموضوع من زاوية الاحتراف للمهنة، لكنه يضيف الى تعريفه "والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر القرون والاجيال" ويرى ان تعريفه بما يحتويه من ثنائية ينطوي على مفهوم عام لفلسفة التاريخ ويميز بين فلسفة التاريخ التي تعني من الناحية المنهجية الفلسفة التحليلية للتاريخ او الفلسفة النقدية للتاريخ وفقاً لعفت الشراوي ويحدد اهتمامها بدراسة وتحليل مناهج البحث التاريخي عند المؤرخ وادواته العقلية من وجهة النظر الفلسفية من الممارسة النقدية الى التحليل التاريخي وربما يشترك الفلاسفة مع المؤرخين في حالة قيامهم بدراسة ما انجزه ذلك المؤرخ، لكن في اطار المنهج الفلسفي، اما ما يتعلق بالأمر من زاوية منهج البحث التاريخي فهو حكراً على المؤرخين دون غيرهم وهو ما طالب النقيب من المؤرخين الالتفات اليه في مناقشة الرسائل والاطارح الجامعية لتخصص التاريخ ودعا لجان المناقشة الى المناقشة بفلسفة التاريخ، وتلك الدعوة ليست ببعيدة عن دعوة المؤرخ عبد العزيز الأمراني للمتخصصين بالكتابة التاريخية في عالمنا العربي بالقول: "يمارس المؤرخ العربي كتابة التاريخ وفقاً للنمط التقليدي القائم على سرد الوقائع وجمعها في مصنفات ومجلدات تظل في الغالب حبيسة الرفوف ونادراً ما تقرأ.. ان الكتابة التاريخية العربية ما تزال حبيسة الرؤية التقليدية للتاريخ موضوعاً ومنهجاً.. لقد ان الأوان ليخرج المؤرخون العرب من ابراجهم العاجية ويطلون على مشكلات الحاضر كمنطلق للبحث والتفكير في الماضي بغية المساهمة في إيجاد حلول لمشكلات الواقع العربي.. [ويضيف] انها دعوة صريحة الى المهتمين بالكتابة التاريخية في الوطن العربي لتجاوز التاريخ السردي، والعمل على تأسيس تاريخ نقدي/اشكالي يبحث في المشكلات الراهنة للمجتمع اعتماداً على مقارنة علمية ونقدية لا ترى في دراسة الماضي هدفاً لذاته بل مدخلاً لفهم الحاضر لاعادة بناء علاقة جديدة مع الزمن التاريخي" (الأمراني، صفحة ١)، اما النوع الاخر وهو الفلسفة التأملية للتاريخ التي تهتم بالنتائج التي يتوصل اليها المؤرخون كأساس لبناء صروح علمية وفكرية جديدة فهي ربما من واجبات الفيلسوف (النقيب، ١٩٩٩، الصفحات ٥٦-٥٧).

ويتفق خالد طحطح حول تلك الثنائية لفلسفة التاريخ في الدراسات التاريخية الحديثة التي تشير الى معنيين اثنين من جوانب دراسة التاريخ، المعنى الأول "يجعل من فلسفة التاريخ دراسة لمناهج البحث من حيث الطرق المستعملة في الكتابة التاريخية، ونوعية الوثائق المعتمدة وكيفية التحقق من الاخبار، ومدى الموضوعية والحياد في تحليل الاحداث" اما المعنى الثاني ويرى بانه الأكثر أهمية وانتشاراً، فهو "تقديم وجهة نظر عن المسار التاريخي ككل... واكتشاف القوانين المتحكمة في ذلك... وامكانية التنبؤ بسير المستقبل البشري" (طحطح، ٢٠١٨، صفحة ٨)، تلك الثنائية التي يختصرها يحيى الملاح بـ "الكلية و"العلية". (الملاح، ٢٠١٢، صفحة ٧) ويبدو ان الرؤى أعلاه هي الأكثر انتشاراً لان فلسفة التاريخ لم تعد حكراً على الفلاسفة والمؤرخين دون غيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى.

سادساً: فوائد فلسفة التاريخ:

يلخص الدكتور محسن فوائد فلسفة التاريخ لكل من التاريخ والفلسفة بـ أربعة فوائد الأولى ان فلسفة التاريخ ترمي الى ردم الهوة ومعالجة القصور في مباحث التاريخ، لان التاريخ يسرف في الاغراق في وصف احداث الماضي. والثانية ان فلسفة التاريخ تعوض نقصاً في الفلسفة يتمثل في القلق الدائم الذي يعاني منه رجال الفلسفة رغبة منهم بالوصول الى الحقيقة، لذا يتلمس فلاسفة التاريخ العون من واقعية التاريخ كونهم غارقون في عالم المجردات. والثالثة: ان العلاقة بين الفلسفة والتاريخ علاقة شد وجذب اذ ان التاريخ يشد الفلسفة حتى لا تعلق بعيداً والفلسفة ترتفع بالتاريخ حتى لا يغوص في الماضي بإسراف، وبتعبير اخر التاريخ يلتمس من الفلسفة الحكمة والمغزى بينما الفلسفة تلتمس من التاريخ الواقعية، وهكذا نجد ان الفلسفة والتاريخ يكمل بعضهما الاخر في حين (يرى الفيلسوف المغربي عادل حدجامي بانهما متناقضان لكننا نعتقد بان التناقض يحدث بينهما حينما يتدخل احدهما في عمل الاخر، وحينما يبالغ المؤرخين ويسرفون في وصف الماضي ويبالغ الفلاسفة في تجريدهم) اما الرابعة: تلبى فلسفة التاريخ للإنسان عموماً حاجة عملية بمنحه الإحساس بالطمأنينة قدر المستطاع فكلما انتاب الانسان جزع لجأ الى الماضي يستوحيه ليقوي من عزيمته اذ ان عصور الكوارث والويلات تبعث الى التفكير في الماضي والمصير (كما في جائحة كورونا) (حسين، ٢٠١٧، الصفحات ١٦٢-١٦٣).

اما عن الفوائد التي يمكن ان يجنيها الباحث في التاريخ من تفسير التاريخ فهي: تحليل الوقائع والاحداث وتفسيرها وربطها، وإشكالية الموضوع وطريقة معالجتها بما يتوفر لديه من مصادر، ومعالجة الثغرات التي تسكت عنها الوثائق والمصادر، التفكير في علل المحن وأسباب الهزائم والقلق والتفكير في مشاكل المستقبل رغم ان التاريخ في سيرورته يستبعد المستقبل من اهتماماته، لكنه يرتبط به عن طريق الحاضر ارتباطاً عضوياً عن طريق فلسفة التاريخ اذ لا يمكن للتاريخ ان يصل الى مرتبة الوعي الفلسفي دون ما يسمى بالاستشراف كعملية ذهنية سواء كان الاستشراف عكسي اي استشراف الماضي او النظر الى احداث الماضي بوعي وهو ابرز ما يميز كتابات المؤرخين المحترفين كأن يكتب احدهم عن نشأة وتطور الحضارة الإسلامية، وهناك امثلة كثيرة عن هذا النوع من الكتابات اذ لا تكاد تخلو كتابات مؤرخ من الفحول عن الكتابة من هذا النوع، ومنها على سبيل المثال كتاب فرنان برودل الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية من القرن الخامس عشر الى القرن الثامن عشر الذي يقع في ثلاثة مجلدات (برودل، ٢٠١٣) او كتاب ول جيمس ديورانت الحضارة الإسلامية النشأة والنهوض (ديورانت، ٢٠١٨). وهو على العكس من استشراف المستقبل الذي يقع خارج اهتمامات المؤرخ منهجياً ككتاب فرانسيس فوكوياما نهاية التاريخ والانسان الأخير على سبيل المثال (فوكوياما، ١٩٩٣)، وتكوين نظرة شمولية للتاريخ البشري على الرغم من انه، كذلك ليس من واجبات المؤرخ الا ان معالجة الاحداث التاريخية بصورة جزئية كما هو الحال في الدراسات التاريخية التقليدية لا يساعد الباحث على تكوين نظرة شمولية جامعة، لأنه كل ما كان التاريخ العالمي اكثر شمولاً حتماً سيكون اكثر وضوحاً وفهماً وبذلك تتصبح فلسفة التاريخ منهجاً ومصدراً مهماً لدراسة التاريخ في عملية تغذية راجعة وبهذا المجال يرى الدكتور محسن بانه "بعد ان كانت موارد التاريخ المتنوعة مصدراً لدراسته، ومن ثم لدراسة فلسفة التاريخ كذلك صار بوسع فلسفته حسب بعض النظريات الحديثة ان تساعد التاريخ لمعرفة جوانب من طبيعة المراحل التي مر بها الجنس البشري التي لم نعد نعرف عنها شيئاً الا القليل من المعلومات فصارت فلسفة التاريخ تعمل لإعادة تركيب تاريخ عصور تاريخية مجهولة ويضيف بان ذلك التحليل ذهب اليه ماركس، وكذلك شبنكلر الذي سمى هذا المنهج بمنهج التعاصر الفلسفي واذا انا بهذا المنهج ستكون له أهمية خطيرة في البحوث التاريخية، اذ نستطيع بهذا المنهج ان نتبين الافاق الواسعة التي سيفتحها امامنا تطبيقه، ونتائج بعيدة الأثر لو انا تضمناه ووضعنا له القواعد والشروط" (حسين، ٢٠١٧، الصفحات ١٦٤-١٦٦).

اما عبد الجبار ناجي فيرى بان مما لا ريب فيه ان من اعظم النتائج التي افرزتها الحقبة التي ظهر فيها مصطلح فلسفة التاريخ حتى الان والتي حققت مجموعة من الأهداف لدراسة التاريخ منها جدية التوجه نحو الدراسات المقارنة في التاريخ وصولا الى الحقائق التاريخية قدر الإمكان، وذلك بإدخال عناصر التحليل والجدل الفلسفي؛ والتوجه نحو الدراسات الحضارية ومعانقة العلوم الأخرى كالاقتصاد والانتروبولوجيا... الخ؛ والتفكير الجدي بالمرحلة التي تمر بها الدول والحضارات وعوامل وأسباب ظهورها وضمحلها. وفاعلية دور الفرد في الاحداث التاريخية والعلل المحركة لهذا الفعل التاريخي من خلال المنهج الفلسفي الجدلي. والتفكير الجدي بالاحداث التاريخية ودور الانسان في صنعها بروح مستقلة بمعزل عن قوى الطبيعة التي يخضع لها الكون او بمعزل القوة الله عز وجل و ارادته. ومدى قدرة القواعد والقوانين العامة في تفسير التاريخ. وإخضاع حوادث التاريخ للتحليل والتفسير العقلي. (ناجي، ٢٠٠٨، الصفحات ١٤٢-١٤٣).